إنتاجاتنا التلفزيونية ولغتنا الفصحى بين الأمس واليوم - الواقع والتحديات

أ. صلاح الدين قوادري

قال الشاعر العراقي معروف الرصافي مفتخرا بماضي الأمة العربية:

همم الرجال مقيسة بزمانها	وسعادة الأوطان في عمرانها
وأساس عمران البلاد تعاون	متكامل الأسباب من سكنها
وتعاون الأقوام ليس بحاصل	إلا إذا أجرت عليه الخيل خير رهانها
فالعُرب أكثر أمّة مشهورة	بعلومها وفتوحها وبيانها
كم قد بنت في البلاد مدارسا	يعيا ذوو الإحصاء عن حسبانها
وبنت في البلاد مصانعا	تتحيّر الأفكار في بنيانها
فالمجد مأثور بكل صراحة	عن مجدها طرًا وعن قحطانها

مقدّمة:

أثبت التّاريخ ماضيًا،كما أثبت الواقع حاضرًا على الأقل،أنّ الأمم المتقدّمة علميًّا،والمتطوّرة اقتصاديًّا

والرّاقية فكريًّا وأخلاقيًّا، إنّما كان سببلهم إلى هذا المقام من خلال لغتهم القوميّة،فاللّغة هي وعاء الثقافة والحضارة،اللّغة القوميّة هي هوية الأمّة،إنّ اللّغةَ بطبيعتها تعكس تقدّم المجتمع وتحضّره،أوربّما تعكس ضَعفه وترهّله،لا يختلف اثنان في أنّأيّ تقدّم اقتصادي وتطوّر علمي لأيّ دولة أوأمّة مقرون بالضّرورة بالازدهار اللّغوي للّغة القومية أواللّغة الأم.

هذا الكلام يقودنا حتما للحديث عن الفصحى،لغة الضّاد،لغة القرآن،لغة التّاريخ والحضارة،لغة العلوم والآداب والفنون،كيف كانت؟ وأين أصبحت؟ يقودنا أيضا الحديث حول مدى انتشار اللّغة الفصحى وقوّة تغلغلها في الحقول الأدبية والثقافية والفنيّة،أيضا العلميّة والتقنيّة والإعلاميّة . إنّ لغة الضّاد لا يمكن لها أن تتطور إلاّ إذا كيّفناها مع متطلّبات العصر،لا ريب أنّ اللّغة العربيّة تملك من المؤهلات والإمكانات ما يجعلها وعاءً لجميع العلوم بلا استثناء، تحتاج فقط إلى الإصلاح أوبالأحرى إلى إصلاح علومها[١]، والإصلاح يكمن أساسا في التيسير والتبسيط،بالإضافة إلى تزويد الفصحى بالمصطلحات الجديدة وَفق متطلّبات العصر، فالفصحى لها من الإمكانات الاستيعابية للمفردات الجديدة مالا تملكه لغة أخرى شرط أن نحسن فقط التوظيف،وهذه من المهام النبيلة التي تقوم بها المَجامع اللّغوية في البلاد العربيّة،إنّ حسن توظيف الفصحى يكمن بالضّرورة في تذليل الصعاب إمام انتشارها وجعل مجتمعاتنا العربية تدرك فعلا أنّها لغة "تخاطب وتعامل "،"لغة رقي وتقدم". إنّ الإعلام عموما والتلفزيون خصوصا له دور مهمّ في نشر اللّغة العربيّة وتبسيطها، بحيث يفهمها العامّة والخّاصة وذلك من خلال مختلف البرامج الثقافية والإنتاجات التلفزيونية على غرار "الأفلام الوثائقيّة والعلميّة، شرائط الرسوم المتحركة أوأفلام الكرتون،الدراما والأفلام التاريخية. "كانت هذه الأعمال على مدار عقود مسيطرة على عقول المشاهدين، وآسرة لقلوبهم،لكن الآن إشكالات كثيرة تطرح وفي مقدّمتها ..تراجع رهيب في استخدام اللغة الفصحى من الإعلام عموما وانتاجاتنا التلفزيونية خصوصا مكامن الخلل وآفاق الحل .

المحور الأوّل: "بريستيج" التحدّث بالأجنبيّة

قال الكاتب الإنجليزي "جورج

اورويل":إنّ تدهور اللّغة يكون أحيانًا نِتاج كسل فكريّ وانحطاط عامٍّ في المجتمع"٢ واضح للعيان أنّ تفاعل مجتمعاتنا العربية مع لغة الضّاد سلبيّ للغاية،لا أدري .. أهي عقدة النَّقص الّتي اعترتنا فجأة أمام كلّ ما هوأجنبيّ؟ أم هي الثقافة الانبهارية؟ أوهي " ولع المغلوب في محاكاة الغالب ٣".هل الفصحى فعلاً أصبحت سترة ضيّقة يصعب على مجتمعاتنا ارتدائها ٤؟هل أصبحت اللّغة العربية عاجزة وظيفيًّا عن مواكبة التطور العلمي والتقانيّ؟ من يتحمّل مسؤولية ضَعف أوإضعاف لغة الضّاد؟ ..ممّا لاشكّ فيه أنّ التلوث اللّغويه الّذي أصاب الفصحى يتحمله الجميع ولكن بدرجات متفاوتة سواءً بقصد أوبغير قصد، شئنا أم أبينا جعلنا من العربيّة لغة مستهلكة وغير منتجة،قد لا أكون مبالغا إن قلت أنّ الفصحى تعاني من هجران اجتماعي وتنحية لها من معظم مظاهر الحياة العامة ٦. يزعم كثيرون وأنا واحد منهم أنّ المؤسّسات الرّسميّة والتعليميّة والإعلاميّة تملك التأثير الأكبر في نشر اللّغة العربيّة،سَلبا أوإيجابا،وهذا بحسب طريقة التعاطي مع الفصحى،إنّ الرسالة النّبيلة الواجب على مجتمعاتنا العربية إدراكها،أن لغة الضّاد الأصيلة من صميم هويّتنا كما أنّها جزء أصيل من حصاد حضارتنا٧،لقد أدّى بنا التّقصير في توظيفها وتفعيلها إلى اغترابنا ثقافيا وتشظّينا فكريًّا،كما أثّر ذلك سلبا على مؤسساتنا التعليمية والإعلاميّة وحتّى الرسميّة،لقد أثبتت معظم الدراسات أنّ من بين الأسباب الرئيسة في تطور المنظومات التعليمية هوالتدريس باللّغة القومية وهوما تأكّده نشرية حديثة للكاتب العربي الشهير "فهمي هويدي"عن مراكز بحثيّة مصريّة، حيث اختارت عيّنة عشوائيّة من ١٥٠٠ طالب مصري، تابعتهم من الإعدادي إلى الجامعي،النّصف الأول درَس في مدارس حكومية تُدرّس باللّغة العربيّة أمّا النّصف الثاني فقد تلقّى تعليمه باللّغة الأجنبية في الإعدادي والثانوي،والنتيجة كانت مبهرة، التّحصيل الجامعي للنّصف الأول كان أفضل بكثير من النّصف الثاني .أكيد أنّنا جميعا نشجع تدريس وتعلم اللغات الأجنبية،لكن هناك فرق شاسع أن تدرس لغة أجنبية وأن تدرس بلغة أجنبيّة.٨

بالموازاة مع المؤسسات التعليمية،لا يختلف اثنان حول دور الإعلام في نشر الفصحى وخصوصا التلفزيون،إنّ هذا الأخير لديه بالغ الأثر في تشكيل ثقافة الجمهور وبناء مفاهيمه وقناعاته،ولذلك كان لزاما علينا أن نستغلّ هذه الوسيلة الإعلامية المؤثّرة في كل ما هوإيجابي، وأبرز هذه الإيجابيات هونشر لغة الضاد بغضّ النّظر عن المجال المُعبّر عنه،لقد كانت العقود الأولى لظهور التلفزيون في أقطارنا العربية مميّزة جدًا،إنتاجات وبرامج تلفزيونية جدّ مفيدة وهادفة، استخدمت فيها تلك اللّغة العربيّة المبسّطة والميسّرة في قالب جمالي خلاّق،لقد ساهمت أغلب تلك الإنتاجات والبرامج في رقي ثقافة الفرد والمجتمع كما كان لها دور بارز في مجال التنشئة الاجتماعية،لقد ساهمت اليوم للأسف الشديد ثقافة الفرجة التضييعية من قبل برامجنا وإنتاجاتنا التلفزيونية في تعميق الهوة بين مجتمعنا العربي والفصحى،مع أنّنا يمكننا التخفيف من سلبية النّاس اتجاهها، فقط إذا ارتقينا بأفكارنا،وابتعدنا عن الأيديولوجيات والمفاهيم التسطيحية والتبضيعية المسيطرة على أغلب قنواتنا العربية، وكذلك في حال أحسنّا توظيف إنتاجاتنا وبرامجنا لصالح لغة الضاد.

دور الأعمال الفنية والانتاجات التلفزيونية في نشر الفصحى .. "بين المنطق الربحي والهدف القومي"

بدايةً، شَكّل ظهور التلفزيون أوالتلفاز في عالمنا العربي نقطة فارقة بالنسبة لمجتمعاتنا العربيّة،حيث استحوذ هذا الصندوق العجيب كما يحلوللبعض تلقيبه على قطاع عريض من المشاهدين،كما كانت القنوات التلفزية في بداياتها مُستحوَذة بالكامل من طرف الدّولة، حيث حَملت الأخيرة على عاتقها تقديم الخدمة التلفزية وذلك لأسباب عديدة:منها ما هوثقافي،اجتماعي وسياسي ٩.ما يهمنا من هذا الكلام هوأنّ هذه القنوات الحكومية عملت على نشر لغة الضاد، بغض النظر عن الأهداف.لا ريب في أنّ التلفزيون لعب دورا مهما في تيسير اللّغة العربيّة وتبسيط علومها من خلال مُختلِف البرامج والحصص،ممّا انعكس ذلك إيجابا على الجمهور العربي،حيث أدرك أنّه بالأهميّة بما كان تشجيع الدّور العملي للغتنا الأصيلة في مختلِف مناحي الحياة،لقد ساهمت حقا عديد الإنتاجات التلفزيونية من خلال الفصحى في بناء المفاهيم الأصيلة والقناعات الهادفة والعمل على الرقي بثقافة المشاهد العربي ومنعه من أن يكون١٠ مُفترسًا لغويًّا،وجعله

يدرك فعلا أنّ فصحتنا هي لغة تعامل وتخاطب،ولغة علم كذلك، ولا حَظَّ لنا في التقدّم من دونها، ولذلك سنحاول بشيء من التفصيل تسليط الضوء على أهم ما حوته

الإنتاجات التلفزيونية والأعمال الفنية من إبداعات والتي كانت وربما لا تزال لها بالغ الأثر في نشر اللّغة العربيّة بأسلوب فنيّ جمالي شائق،يحرّك العقول ويأسر القلوب،ومن أبرز هذه الإنتاجات "الدراما والأفلام التاريّخية،الأفلام الوثائقيّة والعلميّة،شرائط الرسوم المتحرّكة أو أفلام الكرتون". والبداية من الدراما والأفلام التاريخية وهنا أشدّد على تلك النّاطقة بالفصحى،لقد ساهم هذا النّوع الفريد من الأعمال الفنيّة الإبداعية في ترسيخ شيء من ثقافتنا العربية التاريخية والإسلامية في ذهن المشاهد العربي،فاحترافية هذا النّوع من الأعمال تبدوجليّة، من خلال "طريقة ومواقع التصوير،بالإضافة الى براعة التمثيل وكتابة النّص"وهذا ما يجعل الفيلم أوالمسلسل التّاريخي يحاكي تلك الحقبة الزمنية بجعله الجمهور العربي يعيش جزءًا بسيطًا من ماضيه الحضاري الزّاهر.ما من شك في أنّ الأعمال التّاريخيّة قد تحوي بعضًا من الرّسائل المشفّرة،ممكن أن تكون "سياسية،أيديولوجية،أوحتى اجتماعية"..لا يُهم،لأنّ الأهم في تقديري وتقدير كثيرين موتوظيف العربيّة الفصيحة المدقّقة لغويّا والمراجعة تاريخيّا،ولأنّ إنجاز هذا النوع من الأعمال الضّخمة يتطلّب قوّة في الدّعم وعمقا في البحث،يحتاج لَمسات ساحرة من المخرج وخيالا خِصبا من المؤلّف،لقد شهدنا على مدار عقود روائعا من الأعمال التاريخيّة العربيّة المميّزة والتي بقت عالقة في أذهان كثيرين، يصعب على الزّمان نسيانها،من منّا لا يذكر رائعة"الرسالة"ومخرجها السوري الراحل "مصطفى العقاد"؟ وأيضا رائعة "الناصر صلاح الدين" للمخرج المصري الراحل "يوسف شاهين"، وأعيدت هذه الرائعة لكن في شكل مسلسل مع المخرج الفنّان المبدع"وليد سيف". ممّا لا شكّ فيه أنّ أيَّ عمل عربيٍّ تاريخي، كغيره من الأعمال الفنية، يرجى من ورائه الرّبح وتحقيق العائد المادّي،وهذا ليس عيبا بطبيعة الحال إذا كان ذلك يتماشى مع الهدف أوالأهداف القومية بالإضافة إلى التزام الحدّ الأدنى من المبادئ والقيم المجتمعية.لا يخفى كذلك عن أحد أنّ الدراما التاريخيّة النّاطقة بالفصحى تراجعت كثيرا في الأعوام الأخيرة وهذا بطبيعة الحال راجع إلى عوامل عدّة، أبرزها ضَعف الدّعم والتمويل وكذلك تراجع الاستثمار في المواهب الشّابة،بالإضافة إلى حالة اللاّ استقرار والّذي تعرفه بعض الأقطار العربية،إنّ التحديّات التي تواجه هذه الصناعة كبيرة جدّا إذا ما أرادت العودة إلى الواجهة مجدَّدًا،فقط مزيدًا من الاهتمام بالمعاهد الفنية والمسرحية لأنّها بمثابة القاعدة الصُّلبة لهذا النّوع من الأعمال الإبداعية الخلاّقة،كما لا ننسى أيضًا الترفّع قليلا عن الذّهنية الماديّة الّتي طغت على مجتمعاتنا العربيّة في الآونة الأخيرة حيث أصبحت تقيس كل شيء تقريبا بمقياس الربح والخسارة، وهذا ما أدّى إلى اغترابها ثقافيّا.

نأتي الآن إلى" الأفلام الوثائقيّة والعلميّة، " حيث أصبح هذا النّوع من الأعمال صناعة رائجة، لها جمهور عريض من المشاهدين والمتابعين والشغوفين لكلّما موجديد خاصّة في ميدان العلوم والتقانات كما أنّ الأفلام الوثائقية والعلمية عادة ليست موجهّة للمتعة والفرجة، إلاّ ما جاء عن طريق المصادفة،لأنّ هذا النوع من الأفلام يقدّم حقائق تاريخيّة وعلميّة لا مجال فيها لتوظيف الإلهام أوالخيال من طرف القائمين على هذا الشّأن،تعتبر الوثائقيات إجمالا قديمة الظهور، حيث كانت أولى بداياتها في عشرينيات القرن الماضي،عَرفت فيما بعد هذه الصناعة ازدهارا في الأداء والوسائل بالإضافة للتطوّر الرّهيب في المادة العلمية وهذا راجع عموما إلى ثورة الأبحاث والتجارب في هذا المضمار،أمّا في العالم العربي فظهور هذا النّوع من الأعمال الفنية تأخّر نوعا ما،والتّجربة مازالت فَتيّة لحدّ السّاعة، وعموما، هذا راجع إلى ضَعف التَّمويل وكذلك ضَعف ثقافة البحث والابتكار،إنّ غالبية الأفلام الوثائقية والعلمية المقدّمة إلى المشاهد العربي تكون مستوردة، حيث يتمّ ترجمتها ودبلجتها أوبالأحرى تعريبها بلغة عربية فصيحة ذات خلفية علمية أوتقنية أوتاريخيّة،بالإضافة إلى الأسلوب الرائع في التبسيط والإفهام، لقد أثبت هذا النّوع من الإنتاجات التلفزيّة أنّ لغة الضّاد فعلا لغة علوم وتقانات وليس مجرّد كلام مستهلك، نعيش اليوم في عالم سريع التغيّر،ثورة رقمية جلبت معها إعصارًا من المصطلحات الجديدة،بغضّ النّظر عن طبيعتها، وَجب علينا مواكبتها وتكييف لغة الضّاد معها واستيعابها

على نحو إيجابي، وهذا العمل ممكن تحقيقه إذا ما تظافرت جهود المجامع اللّغوية مع المؤسّسات البحثيّة والعلميّة العربيّة،وإلاّ ما فائدة تعريب المصطلحات العلمية أوالتقنية إذا ما أبقيناها حبيسة الادراج؟ ولا يتم استغلالها من طرف الدارسين والمدرّسين في مؤسساتنا البحثية والعلمية؟ إنّ أيَّ عمل احترافي من قبيل الأفلام الوثائقيّة والعلميّة، مُنتجا محليّا كان أومستوردًا ومعرّبًا،لابدّ أن يسبقه عمل قاعدي، ويتجلّى ذلك في قوّة المؤسّسات البحثية والعلميّة وأيضا اللّغة الموظفة في هذه المؤسّسات،فالعلاقة عادة ما تكون طردية بين اللّغة والعلوم،فكلّما كانت اللّغة القوميّة مُوظّفة أكثر كلّما كانت البحوث العلمية أقوى وأمتن،وهذا ما أكّدته ولا تزال تؤكّده كثير من الدّراسات في أنّ العلوم عموما تكون أوسع استيعابا وأسهل تعلّما وأكثر إبداعا وأعمق فهما إذا ما تُعلّمت ودُرّست باللّغة الأم ١١.ما من شكّ في أنّ هناك جهودًا كبيرة تبذل في هذا المجال والتي ساهمت فعلا في إثراء الفصحى من خلال نشر عديد الأبحاث العلمية بالإضافة إلى التأليف والتّرجمة،نذكر مثلا مجلة"الطبيعة" أو"NATURE"١٢والتي تصدرها مدينة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا،وهي الجهة الوحيدة التي تصدر هذه المجلّة نظرًا لتكلفتها الباهظة،كما تعتبر مدينة الملك عبد الله من المؤسّسات الدّاعمة للتّرجمة والنّشر العلمي بالفصحى،كما نجد أيضًا بعض المجلاّت المختصّة في الثقافة العلميّة،حيث نجدها تسعى دائما لتغطية الأخبار والأبحاث وكذا الاكتشافات العلميّة بمنطق مُبسّط ومن خلال الاعتماد على مُحرّرين وصحافيّين علميّين، أبرز هذه المجلاّت "ناشيونال جيوغرافيك" والتي تصدر كمجلّة وقناة تلفزيونية وموقع إلكتروني بالعربي وذلك من شركة أبوظبي للإعلام.يجدر بالذكر أنّ"ناشيونال جيوغرافيك"لعبت دورًا مهمًّا في نشر المعرفة والعلوم على نطاق واسع في السّنوات الماضية،وذلك من خلال قناتها التلفزيونية العربية والتي تذيع عددا من الأفلام التسجيلية والتي تغطّي كافّة فروع المعرفة،إنّ هذا ما يثبت أنّ الأفلام الوثائقية تعتبر من أبرز الطرائق النّاجعة في نشر الاكتشافات العلميّة،إلى جانب دورها طبعًا في تبسيط العلوم والنّظريات العلميّة الكبرى والهّامة لعامة المجتمع،كما أنّ هناك موقع إلكتروني جدير بالاهتمام والمتابعة يدعى"علوم العرب"،وهوموقع متخصص في بثّ الأفلام الوثائقيّة العلميّة المختلفة باللّغة العربيّة،كما يعمل الموقع أيضا كقاعدة بيانات تضمّ أرشيف عشرات القنوات الوثائقية كالناشيونال جيوغرافيك والجزيرة الوثائقية،كما يتم تصنيف الأفلام فيها بناء على مصدرها وموضوعها ١٣. ننتقل الآن إلى"شرائط الرسوم المتحركة" أو"أفلام الكرتون"،حيث أصبح هذا النوع من الإنتاجات التلفزية في زمن الجيل الجديد مُسيطرا على عقولهم ونفسيّاتهم وكأنّهم في حالة من الإدمان،ولعل النّقطة الإيجابية البارزة في شرائط الرسوم المتحركة هي التّحدث بالفصحى وقلة بالعاميّة،وهذا ما يساعد على نشر اللّغة العربية لدى النّاشئة وحمايتها من الاندثار لدى الجيل الجديد،حيث نجده قليل التحدّث بها،حتى في التعليم وفي مدارسنا،بل إنّ بعضهم إذا أراد أن يستهزئ ببعض الألفاظ أويريد إضحاك زملائه يتحدّث باللّغة العربيّة. فلغة القرآن للأسف الشّديد أصبحت أضحوكة عند بعضهم وقد يستغرب أحدهم عندما يراك تتحدّث باللّغة الفصحى، حتى أطفالنا عندما يلتقطون من "أفلام الكرتون"اللّغة الفصحى ويتحدث بها أمام والديه بنفس الطريقة، يتعجّب والداه من طفلهما بالرّغم من أنّها نقطة جدّ إيجابية١٤. صناعة الدوبلاج واللّغة الفصحى.....إلى أين؟

بالرّغم من أنّ هناك بعض التّداخل بين هذا المحور والّذي قبله،إلاّ أنّني رأيت من الصواب أن أُفرد موضوع الدوبلاج بمحور مستقل وذلك لشدّة أهميّته في نشر لغة الضّاد. صناعة الدوبلاج أوبالأحرى صناعة التعريب،بحثت في ثنايا تاريخ هذه الصناعة فلم أجد لها زمنا محدّدًا في الظّهور،ويعتقد كثير من المتابعين في هذا الشأن أنّ الدبلجة موجودة بوجود الأداء الصوتي حيث أنّ الصّلة وثيقة بينهما،والدوبلاج مصطلح مستورد ومشتّق من اللّغة الفرنسيّة"Doublage"وتعني التركيب الصوتي أي إضافة صوت على صوت آخر.١٥ وَلجت الدّبلجة العالم العربي متأخّرة نوعًا ما ولكنّها أصبحت فيما بعد صناعة قائمة بذاتها،حيث أبانت شركات الإنتاج والتوزيع العربيّة عن احترافية عاليّة في تقديم مختلف الأعمال الفنيّة المعرّبة بلغة فصيحة بسيطة وسليمة من الأخطاء وهذا يُحسب لها، لأنّ أعمال الدبلجة ساهمت فعلا في نشر لغة الضّاد من خلال ترغيبها وتحبيبها لدى المشاهد العربي بالرّغم من المآخذ الكثيرة في نواحيَ أخرى.لقد كانت الرّيادة في مجال الدوبلاج

لصالح المدرسة اللبنانية وكان"نقولا أبوسمح" ١٦من روّاد هذه الأعمال الفنية وكان ذلك في السبعينات،ولقد كان عامل الحرب الأهلية اللّبنانية وكذا تراجع الإنتاج الدرامي اللّبناني دورا مهمًّا في النّعجيل بظهور صناعة الدبلجة وهذا من أجل تدارك النَّقص في الإنتاج الفنّي المحلّي،يُصنّف كرتون"السّندباد"١٧كأوّل عمل مدبلج في تاريخ العالم العربي وقد تم إنتاجه وتوزيعه من طرف شركة"فيلملي" "FILMALI"المملوكة لنقولا أبوسمح وكذلك زوجته"ماري بدين"،ثم توالت الإنتاجات بعد ذلك فكان كرتون"جزيرة الكنز"وكذا "ساسوكي"١٨ وذلك مع نخبة من الممثلين الصوتيين المميزين في تلك الحقبة أمثال"وحيد جلال،جوزيف نانو،سميرة بارودي،جيزيل نصر". لقد سار على نفس المضمار عديد شركات الدوبلاج الأخرى في الشرق الأوسط،فكان"خلدون المالح رائد الدبلجة في سوريا،حيث يعتبر من روّاد دبلجة الأعمال الوثائقية،كما نجد أيضا السوري الآخر"منّاع حجازي"صاحب فكرة تأسيس "مركز الزهرة للدوبلاج" والتي اختصّت في أفلام الرسوم المتحركة وبرامج الأطفال،كما لا ننسى التجربة الفريدة لإخواننا في الخليج مع"افتح يا سمسم"والتي شكّلت فعلا مدرسة للدوبلاج باللّغة الفصحى،بالإضافة الى التجربة الأردنية والتي كانت رائدة في دبلجة دراما أمريكا اللاتينية.يروي"عماد الدين الرشيد" ٢١أستاذ كلية الشريعة بجامعة الاوزاعي بدمشق ومعد سابق في مركز الزهرة للدوبلاج تجربته في الجزائر وتساؤله عن سبب ترسّخ العربيّة الفصحى لدى الجزائريين عموما والنّاشئة منهم خصوصا بالرُّغم من الإرث الثقيل الّذي خلّفته الفترة الاستعمارية الفرنسيّة وكذلك التشويش على اللّغة العربيّة،فكانت الإجابة بأنّ الفضل في ذلك يعود إلى"أفلام الكرتون"،وهذا ما لمسته شخصيا عندما كنت ناشئا وحتى فترة المراهقة.وعموما نجد أنّ صناعة الدوبلاج نجحت في توظيف لغة الضاد في أعمالها الفنيّة لأنّها جعلت الفصحى وسيلة تعبيرية غايتها الإبداع.ممّا لا ريب فيه أنّ كثيرا من أعمال الدوبلاج تحمل في طيّاتها عديد السّلبيّات ربّما قد يطول ذكرها والتحدّث عنها،ولعل أبرزها أنّ هذه الأعمال الفنيّة تنتج لبيئة غير بيئتنا وبثقافة غير ثقافتنا ممّا يطرح الكثير من علامات الاستفهام حول الرّسائل الأخلاقيّة و الأهداف الخفيّة لهكذا أعمال. لماذا تراجعت عديد شركات الدوبلاج عن استعمال الفصحى؟ما طبيعة تزايد انتشار العاميّة في الأعمال المعرّبة؟ هل فعلا طغى المنطق التجاري على الصورة الفنيّة والجماليّة للّغة العربيّة؟أم أنّ أعمال اللّغة الفصحى لم تعد تستهوي المشاهد العربي كما في السّابق؟من يتحمّل مسؤوليّة تراجع لغة الضّاد في أعمال الدوبلاج؟جدير بالذّكر أنّ الدوبلاج في حدّ ذاته كان مَحلّ جدل كبير من قِبل النقّاد الفنيّين،بين من ينتقد بشدّة هذه الصناعة بحجّة أنّها تؤثّر سَلبا في أخلاق وقيم مجتمعات العربية بالإضافة إلى إمكانية تأثيرها على الإنتاج الفنّي العربي،وبَين من أيّد انتشار هذه الصّناعة وغَضّ الطَّرف عن بعض محتوى هذه الأعمال لا لشيء إلاّ من أجل نشر اللّغة الفصحى وتعميمها بين مختلِف فئات المجتمع.أمّا الآن فكثير من أعمال الدوبلاج طغت عليها العاميّة،لا أدري ..أهي موضة العصر؟أم أنّنا نعيش فعلا اغترابًا ثقافيًا وافتراسًا لغويًا؟ممّا لاشكّ فيه أنّ لغة الضّاد اعتراها ضَعف من الخارج،ونمو اللّغة الفصحى مرهون بتقدم أصحابها في الثقافة والحضارة٢٢،يجب علينا التعامل مع اللّغة العربيّة على أنّها كائن قابل للتطوّر وفق ما يقرّره أبناء اللّغة،أي أنّ تطور اللّغة يأتي من إرادة النّاطقين بها ويصدر عنهم،فهم أصحاب المصلحة في هذا التطوير.لقد كانت بدايات الدوبلاج حقيقة مشرقة حيث جُعلت الفصحى عنوانها العريض أمّا الآن فأزعم أنّها باهتة،آمل في المستقبل القريب بحول الله أن ينقشع الضّباب وتكون مجرّد فقط.. سحابة صيف.

فنّ الأداء الصوتي وطرائق توظيفه لصالح اللّغة العربيّة

بالرّغم من أنّ هذا المحور أيضا شديد الصّلة بصناعة الدوبلاج،إلاّ أنّني ارتئيت أن أخصّص له محورا منفردا، نظرًا لأهميّته ودوره في انتشار اللّغة العربية،ونظرا كذلك لما أصاب النّطق والأداء العربي من عيوب وتصدّعات واختلافات مثّلت حقيقة نوعا من الفوضى الأدائيّة.ممّا لا شكّ فيه أنّ الأداء الصوتي يمثّل جانبا مهمّا من جوانب لغتنا الأصيلة،وأساسا خطيرًا من أسس كلامها،فهوفنّ النّطق بالكلام على صورة توضّح ألفاظه، وتكشف القناع عن معانيه، وهوفنّ التّأثير في المستمع لينجذب إلى المؤدّي بكلّ حواسه السمعيّة و البصريّة والشّعورية، إنّ الأداء السّليم يحفظ

للغتنا الجميلة رونقها في الأسماع،ووقعها السّاحر في الطّباع٢٣، ويفتح لها القلوب لتعي ما تسمع،ثمّ تتأمّله في أناة وارتياح. لا ريب أنّ العربي بطبيعته يعشق الكلمة والصوت الجميل ٢٤ ولهذا تتميّز اللّغة العربية بكونها لغة موسيقيّة،لغة عذبة رقراقة،تصل إلى الأذن فتطربها،وإلى العقل فتحرّكه وإلى القلب فترقّقه،ولأنّ "الأذن تعشق قبل العين أحيانا"، وهذه حقيقة فعلا، ولنسأل أنفسنا سؤالا بسيطا، كم من الأصوات عشقناها دون أن نرى أصحابها،كثيرة دون شكّ. عادة ما يحتاج التمثيل أو التعليق الصّوتي الجميل المؤثّر في الجمهور للموهبة وتتمثّل أساسا في الخامة الصوتية،أيضا التّدريبات المتواصلة لصقل هذه الموهبة والتعوّد على مكبر الصوت"MIKE"حتى تصل إلى الآلفة، وبالتّأكيد الصّدق في الأداء الصوتي من أجل إيصال المحتوى الفنّي إلى المشاهد العربي،لقد اعتمدت أغلب البرامج والإنتاجات التلفزيونية النّاجحة والمؤثرة باللّغة الفصحى على أصوات قويّة ومتمرّسة،أغلبها عمل في المسرح والدراما وهذا ما أهّل

هذه الأصوات لتقمص الشخصيّات المُدبلجة بكل تفاصيلها سواءً كانت شخصيّات بشريّة أوكرتونية،ممّا أضفى على أعمالهم الفنيّة جماهيرية منقطعة النّظير،وفي هذا الصّدد توضّح الفنّانة الأردنية"عبير عيسى" أنّ العبء الّذي يتحمّله الممثل الصّوتي يتجسّد في تقمّصه الشّخصية الأصلية والتعايش معها في كلّ مشهد بحيث يوصلها للنّاس بالشّكل الجديد وباللّغة العربيّة،وتؤكّد الفنّانة"عبير عيسى" أنّ المؤدّي الصوتي إذا أحبّ الشّخصية المراد تقمّص دورها فإنّه سيقدّمها للنّاس بشكل مقنع.وأضاف الفنّان المسرحي والمخرج التلفزيوني"غنّام غنّام"أنّ العبئ سيكون إضافيّا كممثّل صوتي عندما يتقمّص الشّخصيات الكرتونيّة، فهي تتطلّب مهارات إضافيّة لاختلافها عن العمل البشري،فمثلا يمكن للممثّل الصوتي أن يؤدّي دور طائر أودبّ أوأيّ شخصية غريبة أوغير مألوفة وموما يستدعي استعمال طبقات صوتيّة مختلفة.

خـاتمة:

إنّ الأزمات تلد الهمم، وإنّ من الآلام تولد الآمال،وأنّ اللّغة العربيّة ستنال مكانتها اللّائقة بعون الله، علينا بالمثابرة والعمل الجاد،علينا أن نكون أكثر تنظيما وأبعد نظرا،علينا أن نكون أعمق فهما لواقع لغتنا الفصحى،وأوسع إدراكا لما يحاك ضدّها،وأنجع تسييرا لخلق البيئة المناسبة والمناخ المناسب لجعل لغة الضّاد تحلّق عاليا في سماء الإبداع،إنّ المبادرات تحتاج إلى أفكار،وتحتاج الأفكار إلى إلهام،والإلهام يكون من حصاد حضارتنا المشرق وأيضًا الإستفادة من دروس الواقع من أجل تحدّي المستقبل.ما من شكّ في أنّ الأفكار الهادفة والإبداعات الخلاّقة تحتاج إلى دعم،تحتاج إلى تحفيز،تحتاج كذلك لطول نفس ورباطة جأش من أجل وصولها إلى المبتغى.لا ريب أنّ العلوم والآداب شديدًا الصّلة ببعضهما البعض، لايفترقان، فهما بمثابة الوجهان للعملة الواحدة،ولمّا كانا كذلك،فإنّه يؤلمني ويؤسفني أن أشاهد معظم شرائط الرسوم المتحركة مازالت مستوردة والبعض منها معرّب بالعامية،وما لذلك من تأثيرات سلبيّة على الأجيال النّاشئة،فتراجع القيم الفاضلة والأخلاق الحميدة في أفلام الكرتون الجديدة أدّت إلى حلول ثقافة العنف والتدمير،وهذا ما يحتّم علينا بالتّأكيد خلق صناعة قومية"كرتونيّة" تحترم ثقافتنا وحضارتنا، قيمن أو أخلاقنا. ولا يكفي مجرّد التفكير في هذه الصناعة بل يجب الإقدام عليها لكي تكتمل الصّورة، كما أنّنا لا يمكننا التغافل عن بعض المحاولات الجّريئة في هذا المضمار،لكنّها تبقى دون المستوى المأمول كمّا ونوعا. تعتبر صناعة الرسوم المتحرّكة مُكلفة جدّا من النّاحية الماديّة ولهذا يُحجم كثير من رجال الأعمال عن الاستثمار فيها،كما أنّها في نفس الوقت تعتبر من الصناعات الثقافية الإستراتيجيّة والتي يجب على المؤسّسات الرسميّة دعمها وتشجيعها لأنّه بوجود أفلام رسوم متحرّكة قومية مع لغة فصحى سليمة يمكننا أن نساعد في التنشأة الصالحة لأجيالنا الصاعدة.ونفس الأمر ينطبق على الأفلام الوثائقيّة والعلميّة، يجب علينا التحرّر من تبعيتنا للآخر وأن تكون لنا إنتاجاتنا الفنيّة الصرفة بلغتنا الأصيلة الفصيحة من أجل رقيّ حضاري وسموّ أخلاقي.

في الأخير رعاة المؤتمر الأفاضل تقبّلوا منّي فائق التّقدير والإحترام.. والسّلام عليكم

الهوامش:

٠١ - طه حسين مستقبل الثقافة في مصر" ص من ٢٨٧- ٣٨٧ " المجموعة الكاملة مؤلفات الدكتور طه حسين المجلد التاسع، علم التربية، دار الكتاب اللبناني – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٧٣ .

٠٢- www.aljazira.net.

٠٣ – مقدمة ابن خلدون .

٠٤- د. حسام الخطيب، اللغة العربية، إضاءات عصرية، ص ٤٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ .

٢٢- مصدر سابق عبد العزيز الدوري، ص ٢١٢.

٠٥- ١٠ التلوث اللغوي للكاتبة و الإعلامية المصرية " حورية عبيد " .

٠٦-٠٧ تدخلات بعض الدكاترة و الأساتذة في مؤتمر " اللغة العربية و التعليم " والذي انعقد في أبوظبي الإماراتية .

٠٨-١١ مقال لـ" ياسر فداء الجندي " وموكاتب سوري متخصص .

٠٩- " صفوان شبلي " رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم النفس الإعلامي جامعة دمشق٢٠٠٨ .

١٢-١٣ النبأ nabaa.net .

١٤- مقال لـ " سامية البريدي " من موقع نقطة ...و أول سطر

١٥-١٦ موسوعة وكيبيديا

١٧-١٨ موقع منتدى كايزولان لمحبي

٢١- صيد الفوائد، سلبيات و إيجابيات أفلام الكرتون للدكتور " عماد الدين الرشيد" saada.net .

٢٣- كلية الآداب و العلوم جامعة الشارقة ص ٠١ .

٢٤- الفنان الراحل محمود سعيد في مقابلة تلفزيونية " استديو٨٥ "

٢٥- وراء الشاشة: أصوات صنعت طفولتنا ٢٧ يونيو٢٠١٦

www.viber.com

المصادر والمراجع:

×د.حسام الخطيب،اللّغة العربيّة إضاءات عصرية، الهيئة المصرية العّامة للكتاب،القاهرة١٩٩٥

×د.عبد العزيز الدّوري،مصدر سابق

×مشكلات اللّغة العربيّة"محمود تيمور" المطبعة النّموذجيّة"القاهرة"١٩٨٦

×د.طه حسين"مستقبل الثقافة في مصر المجموعة الكاملة(مؤلفات الدكتور طه حسين،المجلّد التّاسع،علم التّربية، دار الكتاب اللّبناني-بيروت الطبعة الأولى١٩٧٣

×د.عبد العزيز بن عثمان التويجري،اللّغة العربيّة و العولمة،منشورات المنظّمة الإسلامية للتّربية و العلوم و الثقافة"ايسيسكو،الرّباط٢٠٠٨"

×د.عبد العزيز المقالح"وسائل الإعلام و الفصحى المعاصرة

×كليّة الآداب و العلوم،جامعة الشّارقة

×مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الفكر،بيروت ١٩٨١

×فداء ياسر الجندي "كاتب سوري متخصّص" موقع الجزيرة الإلكترونيwww.Aljazeera.net

×سامية البريدي موقع "نقطة...و أوّل سطر"

×رمضان فوزي بديني"مصر"باحث بالمركز العالمي للوسطيّة بالكويت.موقع الجزيرة الإلكترونيwww.Aljazeera.net

×آثار أفلام الكرتون على أطفالنا-صيد الفوائد saaid.net

×الكاتبة و الإعلامية المصرية "حورية عبيدة-القابليّة للإفتراس اللّغوي" موقع المغرب اليوم.

×"التلوث اللّغوي" الموقع الإلكتروني www.fikr.com دار الفكر –مقالات الأستاذ"محمّد عدنان سالم".

×موقع النّبأ alnabaa.net نشر مقال في أخبار الأدب بتاريخ ٠٩,٠٨,٢٠١٤

×مقابلة تلفزيونيّة مع الفنّان الرّاحل "محمود سعيد" في برنامج "ستديو"٨٥